

التمهيد

المغرب عشية الفتح الإسلامي

عندما وصل الفاتحون الأوائل إلى المغرب وجدوا أمامهم بلادا شاسعة متنوعة التضاريس والمناخ ومختلفة الطبيعة عما ألفوه في بلادهم أو البلاد التي سبق لهم فتحها، والتقوا بساكنة متنوعة يهيمن عليها العنصر البربري بلغته التي لا يعرفونها، ووجدوا ديانات مختلفة يغلب عليها الطابع الوثني، أما سياسيا فقد وجدوا بلادا شبه مستقلة عن الدول الكبرى ومنقسمة بشكل شديد مما سيصعب التحكم فيها.

1- أرض المغرب:

إن الحديث عن المغرب في فترة الفتح يطرح مشكل تحديد مجاله بشكل دقيق، فالمصادر العربية تورد تحديدات تختلف حسب الفترات الزمنية ويتحكم فيها التحديد الجغرافي (جهة الغرب)، وأهم ما ميزها هو حركية وتغير الحدود الشرقية بالخصوص. فقد كانت في البداية تشمل كل أراضي شمال إفريقيا بما فيها مصر (البيان المغرب ج1، ص5)، وبعد فتحها بدأ الحديث عن الأراضي الواقعة غرب النيل من ناحية الإسكندرية (البيان المغرب ج1، ص5)، بل أكثر من هذا ففي عهد هارون الرشيد كان المغرب يطلق على كل الأراضي الواقعة غرب نهر دجلة (مناسبة تقسيم الإمبراطورية بين ابنه الأمين والمأمون). وبالرغم من هذا الاختلاف فقد كان التحديد الثاني الأكثر تداولاً واستعمالاً وهو الذي سنأخذ به.

وينقسم المغرب إلى أربع وحدات: أرض برقة وطرابلس وإفريقية (المغرب الأدنى) وبلاد الزاب (المغرب الأوسط) ثم المغرب الأقصى (بلاد السوس الأقصى والأدنى). وسيتطور تعاملنا مع هذا المجال تبعا لمحاور البرنامج إذ سنتناوله في البداية كاملا ثم يبدأ في التفصل ليقصر في الأخير على المغرب الأقصى.

ينقسم المغرب طبيعيا إلى قسمين: مجال شمالي ضيق يغطي حوالي العشر من البلاد، ومجال جنوبي شاسع.

فالمجال الأول يمتد من سواحل إفريقية الشرقية إلى المحيط الأطلسي ليغطي ما يعرف بالمجال الريفي- الأطلسي، وهو حديث التكوين (الزمن الجيولوجي الثالث) يغلب عليه طابع الارتفاع إذ يتجاوز معدل الارتفاع 2000م ويتناقص الارتفاع تدريجيا في اتجاه الشرق والجنوب. ويضم جبال الريف والتل ودرن والهضاب العليا في الجائر والهضاب التونسية والهضاب الأطلسية في المغرب وأشرطة سهلية على سواحل البحر المتوسط وسهولا

واسعة في الواجهة الأطلننتية. وتخرقه أودية كبيرة وعميقة تساهم في تقطعه وعزلة بعض مناطقه. ويسود به مناخ متوسطي يختص بالرطوبة والموسمية والتقلب، شتاؤه بارد ومطير وصيفه جاف حار وقاس، ويعرف فترات جفاف دورية تخلف الاضطراب وعدم الاستقرار. ويوفر غابات ومراعي جيدة في الجبال والسهول.

أما المجال الثاني فهو شاسع جدا ويختص بقدم تضاريسه وبنيته (الزمن الأول)، ويغلب عليه طابع الانبساط بسيادة الحمادات والمنخفضات الصحراوية دون أن يخلو من بعض المرتفعات مثل الهكار وتبلسي. ومناخه صحراوي جاف، وتندر به عناصر الحياة من ماء ونبات مما يجعل الاستقرار به صعبا جدا باستثناء الواحات.

يساهم تنوع المؤهلات الطبيعية في انتشار أنماط اقتصادية واجتماعية في المغرب. ففي الوقت الذي نجد زراعة مستقرة في السواحل الشمالية والشرقية وبعض الأودية في الجبال والواحات، تمتد على مجالات واسعة حياة ترحال وتنقل موسمية وراء القطعان بحيث ينتقل الرعاة صيفا وشتاء بين الجبال والسهول المجاورة أو بين المناطق الداخلية والسواحل المتوسطية أو بين هوامش الصحراء الشمالية ووسطها. وتوفر هذه الأنماط موارد متنوعة للسكان كما تسمح لهم بسرعة التحرك والمناورة.

طبيعة متنوعة فرضت تنوع أنماط العيش في المنطقة.

2- السكان

يعتقد كل من يقرأ المصادر أن سكان المنطقة متنوعون، لكن الحقيقة هي أن الأغلبية الساحقة منهم تتكون من البربر. وي طرح تاريخ هذه المجموعة إشكاليات متنوعة.

أولاً، التسمية: نجهل كل شيء عن أصل التسمية مع أن هناك احتمالان: أصل إغريقي روماني ذلك أن الإغريق يطلقون هذا الاسم على كل من لا ينتمي إلى حضارتهم مع ملاحظة أن كل الشعوب تخلصت منها ولم تلتصق بها، فلماذا يشكل البربر الاستثناء؟ وأصل عربي نابع من مفهوم لغوي أو جنيالوجي (بربر: تكلم لغة غير مفهومة// أبناء بر بن كنعان).

ثانياً، الأصل: لم يعرف شعب نقاشا حادا حول أصله كما عرفه البربر حتى إن باحثا قال إنه يسهل معرفة المناطق التي لم يأت منها البربر أكثر من تلك التي أتوا منها. فقد جاؤوا من اليمن وفلسطين والهند وأوربا وجزر الكناري وإفريقيا جنوب الصحراء. وما يجمع بين هذه الآراء هو محاولتها إثبات أصل خارج عن المنطقة، ويمكن القبول به جزئياً على اعتبار أن المنطقة؛ بفعل موقعها الاستراتيجي، تلقت هجرات من كل جيرانها. لكن يجب إضافة احتمال وجود عنصر محلي قديم تطور بالمنطقة كما تؤكد الاكتشافات الأثرية (إنسان دار

السلطان- الإنسان العتيري والمستيري)، واستحضار التأويلات المعقدة وغير المنطقية أحيانا والدافع الإيديولوجي الذي حكم هذه الآراء رغبة في كسب ود البربر سواء من قبل العرب المسلمين أو الفرنسيين المحتلين.

ثالثا، التقسيم: يصنف البربر حسب نمط العيش أو الانتماء العرقي.

يتميز التصنيف الأول بين البتر والبرانس. فالأوائل أساسا رحل وأغلبهم من زناتة. والآخرين من المستقرين وهم أساسا من المصامدة وصنهاجة وبعض زناتة. ويحتوي هذا التقسيم عيوباً كثيرة وهو مبهم ويصعب الأخذ به.

أما الثاني فيقسم البربر إلى ثلاث اتحاديات:

- زناتة: نفزة- لواتة- ولهاصة- مطغرة- بنو يفرن- مكناسة... ومواطنها في برقة وطرابلس والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى (من ممر تازة حتى المحيط الأطلس المتوسط).
- صنهاجة: كتامة- لمتونة- مسوفة- جدالة- لمطة... ومواطنها بشرق المغرب الأوسط (القبائل) وغرب إفريقية والأطلس المتوسط ودرن الأوسط الجنوبي والصحراء.
- مصمودة: تستقر أساسا في المغرب الأقصى في درن والسهول والهضاب الأطلننتية وسوس وبعض الجزر في الريف (غمارة)، ومن قبائلها هنتاتة وغمارة وجنيفسة وهسكورة وكندافة وغمارة...

وتنقسم كل اتحادية إلى مجموعة من القبائل وكل قبيلة إلى عشائر وعظام وكل عظم إلى أسر ممتدة. وتعتقد كل مجموعة أنها تنتمي إلى جد واحد حقيقي أو وهمي، لكن الدراسات الحديثة أثبتت أن التساكن يعتبر العنصر الأساس في نمو الشعور بالانتماء الواحد لدى معظم القبائل. وتتحدد علاقاتها وفق نظام الأحلاف.

وتسير القبيلة من طرف مجلس أعيان يرأسه شيخ ويساعده رؤساء العظام. وتتخذ القرارات بالتوافق والتراضي الجماعي. ويتدخل المجلس في كل القضايا اليومية للسكان.

ويتميز نظام الزواج بطابعه الداخلي عند معظم القبائل مع صعوبة التأكيد على حق الزواج بابنة العم الشقيق للأب كما هو معروف عند العرب. وقد سجل عند برغواطة منعها للزواج بابنة العم إلا بعد مرور ثلاثة أجداد.

نظام قبلي شبيه بمثيله عند العرب مما يسهل التداخل بين النظامين فيما بعد.

3- الديانة

سادت المغرب ديانات مختلفة منها ديانتان سماويتان؛ هما اليهودية والمسيحية، وديانة إحيائية وثنية مهيمنة.

فيما يخص اليهودية فمعلوماتنا عنها ضعيفة جدا، بحيث نجهل حجمها في المنطقة فلا نستطيع تأكيد أكثر من كونها وجدت في بعض المراكز الحضرية مثل ويلي وشمال الأطلس المتوسط ووسط الأطلس الكبير وبعض الواحات. ويرجح أن أول وصول لليهود إلى المنطقة كان مع أولى هجرات الفينيقيين إلى المنطقة، بينما ستصل أعداد كبيرة منهم بعد الجلاء الكبير لليهود من فلسطين على يد الإمبراطور الروماني عام 131م. وبعد استقرارهم في المنطقة استقطبوا سكانا من البربر إلى ديانتهم مما زاد من أعدادهم.

أما المسيحية فقد وصلت إلى المنطقة إما من مصر أو أوروبا مع ترجيح الأولى منذ السنين الأولى للمسيحية. وكانت إفريقية من الأسقفيات التي وصل عدد المسيحيين بها إلى حوالي الثلث متقدمة على أوروبا خلال القرن 3م، حيث قام القديس سيبريان بتنظيم الكنيسة الإفريقية، لكنها اضطهدت على يد الإمبراطور دسيوس وأغلقت الكنائس. وبعد تحالف المسيحية والإمبراطورية الرومانية منذ بداية القرن الرابع الميلادي توسع انتشار المسيحية بالرغم من اقتصار أتباعها على الروم ومواليهم من البربر. وخلال هذا القرن انشقت الكنيسة وظهر المذهب الدوناتى المساند للفقراء والعبيد فقمع أتباعه وقتل زعيمه سنة 355م وهيمنت الكاثوليكية. لكن وصول الوندال عام 435م إلى قرطاج جلب المذهب الأريوسي، فدخلت البلاد في صراع مذهبي مريع ولم يستطع البيزنطيون بعد مجيئهم إعادة الهدوء، فبدت الكنيسة ضعيفة ومنشقة وقل نفوذها، بل إن كثيرا من أتباعها غادروا مع البيزنطيين وأسلم آخرون خاصة من الأفارقة وبقيت قلة بعد دخول الإسلام.

تبقى الوثنية الإحيائية دين الأغلبية من البربر وتقوم على إعطاء روح لكل المخلوقات والأشياء (حيوان- نبات- جماد)؛ مما يجعلها تسمع وترى وتحسن وتسيء، وتقديس ظواهر الطبيعة المتنوعة، والممارسات السحرية الواسعة. وبالرغم من وجود بعض الآثار عن عبادة بعض الآلهة (الإله حامون= إله الخروف) في القرن 5هـ/11م في الأطلس، فإن مصادرنا خاصة الإسلامية لا تتحدث عن آلهة كانت معبودة من قبل البربر عند الفتح (يمكن التفصيل عند ألفرد بل في المرجع المذكور أعلاه).

ديانة إحيائية مهيمنة ومسيحية محدودة الانتشار ويهودية مجهولة.

4- الوضع السياسي

بعد قرن من الوجود الوندالي في المنطقة، عاد الحكم الروماني عام 534م في شخص الإمبراطورية البيزنطية التي اتخذت قرطاج عاصمة لها. إلا أن نفوذها لم يتجاوز شريطا ساحليا ضيقا شمال إفريقية والمغرب الأوسط بينما اقتصر وجودها في المغرب الأقصى على منطقتين محدودتين هما: طنجة وسبتة. وكانت هذه الأراضي تعيش مشاكل عديدة نتيجة صراعات الولاة وخلافاتهم مع الأباطرة واشتداد الاستغلال الاقتصادي للسكان خاصة ملاكي الأراضي الذين تمردوا وبحثوا عن وسيلة للتخلص من التبعية لبيزنطة. ونجح أحد الولاة يسمى جريجوريوس بن نيقثاس بدعم من الكنيسة من السيطرة على السلطة والاستقلال بالبلاد وإعلان نفسه إمبراطورا عام 645م.

أما باقي المناطق فقد كانت تعيش تحت حكم النظام القبلي حيث كانت كل قبيلة تدبر شؤونها بالاعتماد على مؤسساتها، وربما نجحت هذه القبائل في خلق اتحادية خاصة في المغرب الأوسط والأوراس وجد العرب المسلمون على رأسها كسيلة بن لمزم الأوربي ثم خلفته بعد موته الكاهنة داهيا زعيمة جراوة.

حكم بيزنطي ضعيف ومنقسم على نفسه واستقلال القبائل بشؤونها، مما يعني تعدد الخصوم والأعداء أمام الفاتحين بالرغم من ضعفهم.

خاتمة

أرض متنوعة التضاريس وصعبة الاختراق ومتنوعة الموارد وساكنة بربرية قبلية غيورة على استقلالها ومستعدة للدفاع عن أرضها معتمدة سرعة تحركها وصعوبة بلادها ومعرفتها بها ونظام حكم متفرق وضعيف. هكذا سيجد العرب المسلمون أرض المغرب.